Soroud (10) (2026) : 227 - 240

al-ʿulūm al-insāniyya wa-ḥaqīqat al-adab: min muškilāt al-naẓariyya wa-l-minhāj
Human Sciences and the Truth of Literature: Issues of Theory and Method

العلوم الإنسانية وحقيقة الأدب: من مشكلات النظرية والمنهاج

محمد فنان
باحث في التداوليات وتحليل الخطاب

Abstract: The article examines the question of the nature of literature within the broader field of the humanities, showing how literary discourse—since Plato—has remained an epistemically ambiguous domain because of its imaginative power and its capacity to unsettle rational notions of truth. From this standpoint, the text traces the epistemological shifts that have shaped the history of literary theory, from Aristotle's concept of mimesis to contemporary approaches that expose the instability of fixed meaning and the openness of the text to multiplicity and semantic fragmentation.

The article also addresses the issue of interpretation, recalling the emblematic confrontation between old and new criticism. It argues that the history of literary inquiry is not a record of settled truths but a succession of "productive errors" that broaden the horizons of understanding. Methodologies—structuralism, historicism, semiotics, and others—hold no absolute authority; their value lies in the effectiveness of their application and their ability to animate the text rather than in the rigidity of their theoretical frameworks. Hence emerges a methodological anxiety shaped by the reader's cultural horizon and the constraints of their interpretive community.

Furthermore, the article shows that literature is a dynamic structure resistant to fixation, as it weaves the linguistic with the cultural and reconfigures collective memory, myths, and symbols within new contexts of meaning. The text, as a network of signs, moves along the threshold of memory and oblivion, of aesthetics and power, granting interpretation an open and inexhaustible potential.

The study concludes by advocating for an integrative approach that combines linguistic and semiotic analysis with an acute awareness of the cultural and ideological frameworks underlying literary production, enabling us to grasp literature as a continuously regenerating semantic and aesthetic practice resistant to closure.

Keywords : Literature , Criticism , Interpretation , Epistemology , Methods.

الملخص: يهتم هذا المقال بإشكالية حقيقة الأدب ضمن تصورات العلوم الإنسانية، مبيّناً أنّ الأدب، منذ أفلاطون، ظلّ موضوعاً للارتياب المعرفي بسبب طاقته التخييليّة وخرقه لمبدأ الحقيقة العقلانية. ومن ثمّ تتبّعُ الدراسةُ التحوّلات الإبستيمولوجية التي رافقت مقاربة الظاهرة الأدبية، من أرسطو ومقولته في المحاكاة، إلى النظريات الحديثة التي كشفت الطابع المتعدّد واللّاخطّي في إنتاج المعنى.

ويناقش المقال جدلَ التأويل عبر نموذج الصراع بين النقد القديم والنقد الجديد، مؤكداً أنّ تاريخ المقاربات ليس تاريخ يقينيات، بل تاريخ أخطاء منتجة تفتح إمكانات جديدة للفهم. فالمناهج البنيوية، والتاريخانية، والسيميائية وغيرها لا تملك امتيازاً مطلقاً، لأنها تخضع لشرط استعمالها ونجاعتها في قراءة النصوص لا لصفائها النظري. لذلك يبرز القلق المنهجي الناتج عن علاقة القارئ بمقتضيات أفقه الثقافي وإكراهات جماعته التأويلية.

كما يبيّن المقال أنّ الأدب نظام متحوّل يستعصي على الاختزال في بنية واحدة، لأنه يمزج البعدَ اللغوي بالتشكيل الثقافي، ويعيد إنتاج الذاكرة الجمعية والأساطير والرموز في سياقات تداولها. فالنص، بما هو نسيج علامات، يشتغل على حدود الذاكرة والنسيان، وعلى جدل السلطة والجمال، مما يمنح التأويل قابليته اللامتناهية. و يخلص المقال إلى ضرورة منهج تركيبي يزاوج بين التحليل اللغوي والسيميائي من جهة، والوعي بالشرط الثقافي والأيديولوجي المنتج للنص من جهة أخرى، بما يسمح بفهم الأدب بوصفه ممارسة دلالية وجمالية تتوالد باستمرار وتقاوم كلّ مركز ثابت.

الكلمات المفاتيح: الأدب ، النقد ، التأويل ، الإبستيمولوجيا ، الثورات ، المناهج.

مقـــدمـــــة

طرح الأدب، بوصفه خطابا فنيا وفكريا، مجموعة من الإشكالات الفلسفية والدينية والعلمية. ولعل من أقدمها الرفض القاطع لمحموله، وللمهتمين به. وهو الموقف الذي صدح به أفلاطون في الجمهورية حيث طرد منها الشعراء، ومن كان في منزلتهم، بوصفهم بعيدين عن الحقيقة التي كان يتمثلها، ولا يعبرون إلا عن صورتها الثالثة، بعد الفلاسفة والصناع، كما أن جهودهم، في نظره، لا تنفك تخاطب الأهواء، وبالتالي، تعطل عمل العقل، و إمكاناته كافة، ناهينا أن هؤلاء مستعدون على الدوام للكذب والمبالغة في سبيل تحقيق غاياتهم. ولا غرابة في طرده للشعراء، كما كان يتصور أعمالهم، ما دام ينادي بـ "معرفة صحيحة يجب الوثوق بها"[1] وهي المعرفة العقلية، في مقابل أخرى "فاسدة لا يجب تصديقها"[2]، وهي الشعر.

1. خديجة الزتيلي، **أفلاطون السياسة، المعرفة، المرأة**، منشورات الاختلاف، ودار الأمان الرباط، ط1، 2011، ص 101.
2. المرجع نفسه، ص 101.

لم يمر هذا الموقف في الساحة الفلسفية مرور الكرام، بل خلق زوبعة فكرية نتجت عنها فيما بعد مجموعة من الكتب والمصنفات من أبرزها كتابا أرسطو الذي خلّص فيه الخطابة من الفلسفة، وحصرها في البحث الممنهج عن الأدلة وترتيبها وحسن سوقها مع التمييز بين "الأدلة التي تساق مدفوعة بموضوعها و بأحقيته وبين الأدلة الأخرى التي تذكر لأنها من البديهيات والمسلمات، وكيف يميز بين الأنواع الخطابية"[3]، ثم كتاب (الشعرية) وهو مصنف تصدى فيه لنظرية المحاكاة بوصفها جوهر الشعر، "(وبصيغة أدق عن طريق الوزن واللغة والموسيقى)، مستثنيا بوضوح المحاكاة في النثر (مثل إيماء سوفورون والحوار السقراطي)، وكذلك البيت الشعري الذي لا يعتمد المحاكاة"[4]، أو النثر الذي لا صلة له بها.

من هنا، ستتناسل جملة من الكتابات المتوزعة بين النظر والشرح والنقد، في سبيل عرض الإشكالات التي يطرحها الأدب، ومحاولة تقديم تفسيرات خاصة بها. كما ستبزغ عدة اتجاهات نظرية تروم الإدلاء بآرائها في الموضوع، وسرعان ما تندثر لتتوارى وراء قرينتها القائمة، كما يشهد على ذلك تعاقب الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والرمزية، وغيرها، بما تنطوي عليه من اختلافات نظرية وبنائية في رؤية الموضوعات التي يطرحها الأدب، من قبيل مكونه التخييلي، ووظائفه التواصلية، وما ينطوي عليه من إشكاليات الحامل والمحمول، والنمو العضوي للعمل، وسؤال الفن في الأثر الأدبي، وغيرها من القضايا التي تزخر بها فصول كل مذهب، وغاياته. على أنه، لا بد من الإشارة إلى أن تعددية وجوه الأدب وضروب بنائه، دعت إلى تنويع منظومات دراسته.

حقيقة الأدب ومسألة التأويل

تجد كل محاولة تأويلية للأدب صعوبة في القيام بنفسها، وإظهار نجاعتها، بفعل ما يتلقاها به خصومها، لإحساسهم بالخطر المحدق بما يحملونه من مرجعيات وثوابت، وما قد يتهددهم من أفول في حال قيامها، هم وما يحملونه. ولعل من أبرز الأمثلة الدالة على هذا الأمر الصراع القوي الذي دار بين كل من رولان بارت الذي رفع مشعل النقد الجديد في مقاربته الظواهر الأدبية، وعلى رأسها كتابات راسين، وريمون بيكار، حاملُ لواء النقد القديم، وصاحبُ الدراسات المستفيضة في راسين نفسه، "وهو صراع أحدث سلسلة من الردود المعارضة أو المؤيدة"[5] للرجلين، بعدما تحوّلا إلى رمزين لتصورين تأويليين متعاصرين، يضيّق كل منهما الخناق على سواه، بل ويهدد استمراره ووجوده.

3. إبراهيم سلامة، **بلاغة أرسطو بين العرب واليونان**، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1950، ص 16.
4. جيرار جنيت، **مدخل لجامع النص**، ترجمة عبد الرحمان أيوب، دار توبقال للنشر، ط1، 1985، ص 23.
5. رولان بارت، **النقد والحقيقة**، ترجمة إبراهيم الخطيب، مراجعة محمد برادة، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط1، 1985، ص5.

لم يكن هذا الصراع خارجا عن المألوف ، ولا غريبا في ساحة النقد الأدبي، فلطالما اختلفت النقود، وتصارعت التأويلات في مقاربتها الأدب، وفي محاولة اكتناه ماهيته، والوصول في النهاية إلى حقيقته. وتُلخص هذا الصراع مقولة "إن تاريخ العلم هو تاريخ أخطاء العلم"، بعد استفادتها من درس الإبستيمولوجيا، ومن تحولات النظرية الأدبية، بل من الأدب نفسه، بعَدّه ظاهرة لغوية تَنْشَدّ إلى "تصور يخصص ماهي الظاهرة اللغوية، وهذا التخصيص يختلف من خطاب إلى آخر. واختلاف التصورات يبرز على مستوى المعاني أولا (أو المفاهيم)، وقد ينتج عن هذا اختلاف في المراجع، لأن المعنى يحدد المرجع أو الماصدق"[6].

يحيلنا هذا الوضع المفعم بالتعددية والاختلاف والتصادم إلى أننا، وعلى امتداد تاريخ المعرفة الإنسانية، وما راكمته من علوم وفهوم للذات وللعالم، "نعيش– كما قيل– مرحلة تعددية لا يستطيع فيها أي منهاج أن يزعم لنفسه السيادة والتفرد بأي مجال. ولا شيء يحول بين الباحث في هذا الميدان المعقد وبين أن يسلك أيَّ طريق يتيح له بلوغ غايته في الفهم والتفسير والقدرة على توقع الظاهرات"[7]. يشير هذا الأمر إلى أن تاريخ العلوم هو تاريخ مبني على التعددية المنهجية، لا على الأحادية النظرية، إذ "لا توجد قاعدة واحدة، مهما يكن قدْر رسوخ أساسها في الميدان الإبستيمولوجي، لم تنتهك في لحظة أخرى. ولم يعد من الممكن الإيمان بوجود منهاج قائم على المبادئ الدائمة يلزم الخضوع لها"[8] خضوعا مطلقا.

وإذ كان مآل المعرفة، كل معرفة، الانحدار بعد اكتمالها، وإنهائها لمشروعها، إن كان لها مشروع، أو حتى قبل إنهائه، فإنّ أبحاث العلوم الإنسانية، و مقارباتها لا تزال في مسيس الحاجة إلى البحث والمقاربة المتكررة، لما تهتم به، وتخصه بالدرس والتحليل والمناقشة من جهة، ولما تحمله هي ذاتها من أدوات ومفاهيم إجرائية تتوسل بها في اختبار موضوعاتها. وعليه، فإن ما تبدو عليه المعرفة العلمية، والعلوم الإنسانية منخصوبة مرجعية، وصلابة نظرية، و متانة إجرائية، سرعان ما يتلاشى مع ظهور أول منعطف إبستيمي يعد بأفق جديد أكثر إشراقا، وأشد نجاعة. من هنا، لا يمكن الاستفادة من المعارف العلمية، ومن الإنسانيات إلا في زمن فتوتها، وعنفوانها؛ أي عندما تطرح الجديد، وتُجلّيه.

6. عبد القادر الفاسي الفهري، **عن أساسيات الخطاب العلمي والخطاب اللساني**، ضمن المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، ط3، 2001، ص 47.

7. الطاهر وعزيز، **تقديم المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية**، دار توبقال للنشر، ط3، 2001، ص 5.

8. المرجع نفسه، ص 5.

إن طابع الاختلاف، والصراع أحيانا لا ينبغي أن ينسينا أهمية النظرية، ولا أن يحجب عنّا جدواها في زمنها، ولا ما قدمته من محاولات تفسيرية استنفدت في سبيل بلوغها الشيء الكثير، وهو ما أكد عليه الأستاذ عبد الله العروي بقوله: "إن الاعتراضات الإبستيمولوجية لا يجب أن تقود المعترض إلى رفض المنهج كمنهج. يمكن أن تُرفض التاريخانية أو البنيوية كفلسفة وتوظف كمنهج للتحليل في حدود معينة"[9] تفرضها الحاجة التظهيرية، أو الوضع المعرفي الذي تُطرح فيه الظاهرة المنشودة. ومن هنا، يأتي رفض القفز بين النظريات، ومنع بعض القراءات التي تم التوصل إليها، دون تمييز بينها، ودون استفادة من تركتها التحليلية والتأويلية قبل الإدلاء بالموقف الذاتي النابع عن اختيار خاص، وتجربة منفردة.

يطرح هذا الوضع شحنة مضاعفة من القلق المعرفي ذات طابع مغاير، كما يخلق معضلة حقيقية أمام الإشكال التأويلي، وما يتصل بالبناء العلمي من ضروب الفهم والتفسير المثبتة لصلاحية النظرية والتطبيق. وعلى رأس ما يُطرح هاهنا، شرطان، يتعلق أولهما بمدى جاهزية النظرية لمقاربة الظاهرة، والاستنجاد بأدواتها في سبيل اختبار الموضوع الذي تعالجه أولا، وموضوعها في ذاتها ثانيا. أما الثاني فيخص نتائج المقاربة والاختبار من زاوية قياس نجاحها، وقدرتها الحقيقية على الوصول إلى نتائج علمية ومضبوطة؛"فالأمر هنا مرتبط بمعرفة سلامة الاستعمال، بعيدا عن سلامة النظرية التي يُسلّم بها مبدئيا ، ومدار الأمر في هذا المقام خاص بقواعد استعمال المبادئ التي جاء بها العلم، و الضامن لحسن توظيفها في سياق النظر والتحليل.

يرتبط هذا القلق المعرفي الذي لا يخلو من إشكال على صعيد المنهج، بطبيعة الباحث، وبظروف البحث، وبغايات الاستقراء والتحليل. فما "هو مسلَّم به اليوم هو أن القارئ يقرأ النص انطلاقا من اهتمامات تخصه أو تخص الجماعة التي ينتمي إليها. القارئ يهدف دائما، من خلال قراءته إلى غاية، إلى غرض. سواء كان حسن النية أو سيّء النية فإنه يسعى إلى إثبات غرض من الأغراض"[10]، يطمح إلى بلوغه، وتحقيقه، تبعا للشرط المعرفي الذي يرتضيه، ولإمكانات الخطاب العلمي و نسبيته، "باعتبار إمكان تعدد مجالات التفسير والبحث والاحتجاج، وإمكان اختلاف وضع الخطاب فضاء وزمنا، وكذلك بالنظر إلى الاستنتاج الملازم لخطاب معين"[11]، له من الخصوصية ما يجعله، منغلقا على نفسه، وبالتالي، غير منسجم مع سواه.

9. عبد الله العروي، **المنهجية بين الإبداع والاتباع**، **ضمن المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية**، دار توبقال للنشر، ط3، 2001، ص 10.

10. عبد الفتاح كيليطو، **مسألة القراءة**، **ضمن المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية**، دار توبقال للنشر، ط3، 2001، ص 19.

11. عبد القادر الفاسي الفهري، **عن أساسيات الخطاب العلمي والخطاب اللساني**، ص 44.

طبيعة الأدب وأسئلة النظرية

ما من شك في أن كلَّ خطاب علمي، ومثله الخطاب الإبداعي، سواء في "الأدب، أو الفلسفة، أو العلوم الإنسانية، هو فكر ومعرفة بالعالم النفسي والاجتماعي الذي نسكنه. والواقع الذي يطمح الأدب إلى فهمه هو، ببساطة شديدة ، التجربة الإنسانية. لذا يمكن القول إنّ دانتي أو سرفنتيس يقدمان لنا معرفة عن الوضع البشري لا تقل قيمة عما يقدمه كبار علماء الاجتماع وعلماء النفس"[12]. غير أننا لا نَغفَل عن أن إنتاج الأدب، والعلوم الإنسانية، بل والعلوم الحقة أيضا، لا يخرج عن هيمنة أجهزة السلطة، سواء أكانت صلبة أم ناعمة . ولا أدل على ذلك من الدول التي كانت تحت سلطة "الكتلة الشيوعية [حيث كانت] دراسة الآداب القديمة توجد في قبضة الأيديولوجية الرسمية"[13].

وما كان من هذا الوضع إلا أن يزيد من حدة التعامل مع الظاهرة الأدبية من زاوية الإنسانيات، من جهة أنها خدم للسلطة، وبالتالي فهي في حاجة إلى تقديم ما يدعم هويتها، و (يدعم) ثوابتها، ومن جهة أنها عمل منفصل عن الذاتي، لا يؤمن إلا بالعقل، وأدوات المنهج كما تقدّمها المعرفة وتدافع عنها. ولهذا، "أصبحنا لا نستغرب أن تضرب المناهج بأكثر من سهم في التعامل مع الظاهرة الأدبية"[14]. هذا فضلا عن أنّ الكتابة الأدبية تنطوي على أصناف من صور الفردية المنغرسة في الجماعة، مما يدعو إلى تعدّد زوايا النظر؛ غير أن تضارب المناهج، وما تقدمه العلوم الإنسانية، وبلوغها حدّ التنافي في كثير من الأحيان، يثيران "عدم الارتياح إلى استقامة اصطناعها كلها، وعلى تضاربها"[15] على صعيد النتائج، والخلاصات.

غير أنّ هناك إشكالين آخرين يواجهان الإبداع الأدبي، وإنتاج النصوص الإبداعي. يتعلق أولهما بطبيعة اللغة التي يتوسل بها الشاعر/الكاتب، إذ هو ملزم بتحديد كلامه، وفرادته بناءً على شكل تعامله مع اللغة ذاتها، واستعمال أساليبها المتاحة، بل وابتكار ما يفيد من تمكينه داخل حقل الأدب. وهو، إذ يستعمل اللغة، ينخرط بالضرورة في العشيرة اللغوية التي ينتمي إليها، وفي ذهنيّتها التي تلزمه إقامة المغايرة معها، ابتداء من اللغة. أما ثانيهما، فهو وقوع الأدب في أزمة التراث، أي في التشكيل الأدبي الذي ألفه الذوق العام، وارتضته الجماعة، وصنعت له قواعد تحرّم الخروج عنها. مما يدعو الأدَب إلى البحث، بين حين وآخر، عن إمكانات جديدة تتيح له إثبات ذاته، والتعبير عن تفرّد تجربته، من دون الوقوع ضحية الرفض والقمع.

12. تزفيطان طودوروف، **الأدب في خطر**، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، ط1، 2007، ص 45.
13. المرجع نفسه، ص 6.
14. حسين الواد، **في مناهج الدراسات الأدبية**، منشورات الجامعة، السلسلة الأدبية – 2، ط 1984، ص 21.
15. المرجع نفسه، ص 22.

على الأدب إذا، أن يعيد إنشاء علاقات لغوية متجددة باستمرار، كما أنه في حاجة إلى تحديد كيفية التعامل مع أداته اللغوية على الرغم مما هي محكومة به من "مقررات وقوانين، وهي في الفن محكومة بنظم وتقاليد–تقيم بنية شعرية تامة تزلزل هيكل التاريخ [الأدبي]، وتعدّل التقاليد الشعرية"[16]، والمعرفية التي ينهض بها الأثر، ويرتد مصدرها إلى ما يعوّل عليه منتجها من "خبرات جمالية نتاجها الوعي بالتجانس والتآلف، والوعي بالموازاة والتوازن في اتجاه تحصيل عناصر النسبة والتماثل والتطابق، في اتجاه الوعي بالتكوينات والنماذج والأنماط"[17]. مما يسر للعلوم الإنسانية دراسة النصوص من زوايا متعددة، والسعي إلى تقديم تفسيرات جديدة تنير عالم الأدب، وتضيف إليه. وعليه، كان منها ما يرى حقيقته خارجه، وما يراها داخله.

يخلق هذا الوضع مجموعة من الأسئلة المتعلقة بقراءة الأدب، وبفعل الكتابة، وبآليات المقاربة الأدبية، من حيث الكيفية التي تلزم دارس الأدب بمعاينة النصوص، واختبار أدبيتها، وإنتاج معرفة عالمة عنها تقدم حقيقة الأدب وطبيعته. وليس هذا الأمر بالهيّن، ولا باليسير، إذ "تثبت المناهج العلمية قيمتها أحيانا في مجال محدد بعينه، أو في تكنيك محدد كاستعمال الإحصاء في مناهج معينة لنقد النصوص أو دراسة الأوزان. على أنّ معظم المشايعين لهذا الغزو العلمي للدراسة الأدبية إما أنهم انتهوا إلى إخفاقهم والاستسلام للتشكيك، أو لتعليل نفسهم بالأوهام حول النجاح المقبل للمناهج العلمية"[18]. يضاف إلى هذا طابع المغايرة والتحول الذي يطبع الأدب لغة وأسلوبا وتعبيرا. وبالتالي، لا مجال فيه للمعياري، أو الثابت.

وعلى الرغم من أنّ همّ الناقد هو مقاربة النصوص، واختبار ما تتميز به من فرادة عن سواها، أو ما يحذق فيه شاعر/كاتب عن غيره، أو ما يتسم به مذهب عن نظرائه، أو ما يختص به عصر عن بقية العصور، فإنّ مسألة القراءة تبقى نسبية، ومرهونة بمجموعة من الشروط؛ فهي وإن دلت على أنّ تلقي الأدب ونقده "جسم نام من المعرفة والبصيرة والحكم"[19]، فإنها عملية لا تخلو من ذاتية، و من تعويل على الذوق، وعلى الميول التي يمليها المرجع الفلسفي أو التاريخي أو الديني، الذي يعسر استقبال النصوص بعيدا عنه، لأنها تمثل الأطر الاجتماعية والسياسية لمفهوم الحقيقة كما تُنتجها المعرفة

16. عبد المنعم تليمة، **مداخل إلى علم الجمال الأدبي**، منشورات عيون المقالات، ط2، 1987، ص 77.
17. المرجع نفسه، ص 78.
18. رينيه ويليك وأوستن راين، **نظرية الأدب**، ترجمة محيي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1987، ص 14.
19. المرجع نفسه، ص 17.

الأدبية، ومفهوم الحقيقة ذاته لا يخرج عن أن يكون" مجموع الطرق والعمليات التي يتم بفضلها إنتاج العبارات وتوزيعها وتداولها"[20] تبعا لسلطة النسق.

على هذا الأساس، ظلت مقاربة الأدب، ومعها محاولات تعريفه واستكشاف عناصره، خاضعة لإدارة المعرفة، وللنسق المهيمن، ولمكونات السلطة وإملاءاتها ؛ فليست إذا " مسألة المعرفة، –والحال هذه – مسألة منهجية إبستيمولوجية، ولا يتعلق الأمر بالبحث عن خطاب الحقيقة وتحديد منهج الوصول إليه، وإنّما بدراسة مفعولات الحقيقة للخطابات Les effets de vérité des discours؛ يتعلق الأمر إذن بالنظر إلى الحقيقة كمفعول لا كفاعل، مفعول شيء آخر"[21]، لا تطمح النظرية، وأدواتها إلا إلى بلوغه، والوصول إليه. وهذا يعني أن ما تقدمه النظريات لا يفكر وحده، وإنما هناك محركات خفية لعمله، وأنماط مخصوصة من الحركة التي يتكفل بإنتاجها، بناء على "النموذج الذي يصوغها ويضعها"[22].

أمام هذا الإحساس بالعجز تارة، واللاجدوى تارة أخرى، يُطرح سؤال بارت الشهير، من أين نبدأ؟[23] وهو سؤال متعلق تعلّقا مباشرا بالاندهاش القائم "أمام المقاربات المتباينة التي تشحد أحيانا، وبشكل اعتباطي، تحت اسم البنيوية"[24]، وغيرها من المناهج النقدية ذات الصلة الوثيقة بالإنسانيات من جهة، والدراسات اللغوية من جهة ثانية. وينطلق هذا السؤال من أن العلوم الإنسانية، وما تقدّمه من مناهج تحليلية لا تقدم وصفات جاهزة للمقاربة، ومن ثَمّ استنباط ما يحمله النص في ثنايا مغامرته التأويلية. هنا يقدم بارت محاولة لإقامة استقراء لغوي،تقوم على أساسه تعددية النص، وقابليته للانفتاح الدلالي، بناء على الارتهان إلى خاصيته المعنوية، واعتمادا على دواله اللغوية، والعلاقات القائمة فيما بينها.

نظام الأدب وسياسة الإبداع

بما أن الأدب نظام يتميز بالحركية، يلزم، بداية، تحديد العناصر الثابتة فيه. وهذا الإلزام يجرنا بالضرورة إلى البحث عن المكونات البنيوية التي تبني العمل، وتجعله أدبا. غير أن هذا العمل لا يخلو من صعوبة، إذ كيف يمكن البحث عن الثابت ضمن المتحول من جهة؟ ثم كيف لهذا الثابت أن يثبت ضمن عمل سمته الأساسية هي التحوّل؟ لا

20. عبد السلام بنعبد العالي، **نحو سياسة للمعرفة**، ضمن كتاب، إشكاليات المنهاج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، ط2، 2001، ص6.
21. المرجع نفسه، ص 8.
22. المرجع نفسه، ص 9.
23. رولان بارث، **من أين نبدأ؟**، ترجمة محمد البكري، مجلة عيون المقالات، ع12، 1989، ص 80.
24. المرجع نفسه، ص 80.

شك أن هذا يزيد من إبراز معضلة البدء، وسؤالها الإشكالي في صيغته البارتية. ولا بد أنّ حل هذه الأزمة المنهجية كامن في ثنايا النظام الذي تحتكم إليه النصوص، ونموذجه الأصيل الذي تعتمده في تشكيل مقولها تارة، والخروج عليه للتعبير عن خصوصيتها تارة أخرى.

يمثل النظام، في هذا المستوى، مجموع الاستراتيجيات البنائية التي تكفل تحقيق نصيّة النص، وما يزخر به من عناصر الأدبية كما تبنيها سياسته البلاغية. وبمجرد التنقيب عن هذا المبدأ الجامع، يصير من اليسير، حسب بارت، "الكشف عن شفرتين: إحداهما ثابتة تؤوّل [...] إلى وضع نموذجي [...] والأخرى نشيطة وحيوية (الأمر الذي يمنع من أن تكون سماتها دلالية) تحيل على العمل الاستكشافي"[25] الذي راح الشاعر/الكاتب يؤسس له، ويرفع دعائمه. وتكمن أهمية هذا الجزء من البحث في أنه يخدم العلامة اللغوية في إنتاجها المدهش والإنساني في آن. وهكذا، تتحول اللغة، بفضل النظام، من فعل للتواصل، والتعبير المرجعي، إلى فعل ثقافي "لا يمكن للعلامة التعبير عنه وإنّما تشير إليه فقط، وتتركه لاكتشاف المؤوّل"[26].

يجرّنا اختبار ما يشكله النظام، ويحرص عليه، في علاقته باستعمال العلامة، أي التدخل الذاتي في الملفوظ اللغوي، إلى التساؤل عن دلالة العبارة المنطوق بها في ضمير منتجها، وما تحيل عليه عند متلقّيها ، بل عما تثيره فيه حال اقترانها بغيرها في النص. كما لا يجب إغفال أن الدلالة التي يتضمنها النص، أيّ نص، "لا تحددها فقط الصيغ اللسنية التي تتدخل في تركيبها (كالكلمات، والصيغ الصرفية، أو التركيبية، والأصوات والنبرات) وإنّما تحددها أيضا العناصر اللغوية غير اللفظية المكونة للمقام. ويستحيل فهم التحدث إذا ما أغفلنا عناصر المقام أو إذا غابت عن البال أهم كلماته"[27]، مما يزيد من عسر المقاربة التحليلية من منظور بعينه، بل واستحالة الوصول إلى مشترك تكويني، ومن تم تعميم نتائج الدراسة.

يتضح بهذا، أن محاولات اكتشاف حقيقة الأدب، وجوهره الإبداعي، اعتمادا على ما قدمته ثورات العلوم الإنسانية، ظلّت محصورة في النظر، ومراجعة ما قدمته النظريات من الأفكار، دون اهتمام بما أفرزته التجارب النقدية التطبيقية من إضافات وتفصيلات، دفعت إلى تعميق الفهم في المشروع اللغوي، بوصفه منعطفا معرفيا يفيد

25. المرجع نفسه، ص 83.
26. جيرال دو لودال، **السيميائية أو نظرية العلامات**، ترجمة عبد الرحمن أبو علي، دار الحوار، اللاذقية، 2004، ص ص 177 – 178.
27. ميخائيل باختين، **الماركسية وفلسفة اللغة**، ترجمة محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال للنشر، ط1، 1986، ص ص 137 – 138.

في فهم الظاهرة واستيعابها. وسيعرف موضوع الأدب تحولا في الاهتمام، من مقاربته الوثيقية، كما أفادت المناهج الكلاسيكية، بعد انفتاحها على الأدب، ثم النظر إليه بوصفه نصا لغويا تلزم مقاربته لسانيا، نصيا وخطابيا، إلى النظر إليه على أنه كتابة للمغاير والمختلف، ونمط من أنماط الحفر في مناطق الصمت، وتعرية المحجوب، والبحث عن خبايا المسكوت عنه أو اللامفكر فيه.

وليست العودة إلى الأدب، من هذا المنظور، إلا رغبة في الوصول إلى "إنتاج أو تأويل العلامات، والنص بعامة، بما هو نسيج من العلامات، وهي تسمح بحصرها"[28]، ومن تم بلوغ الحقيقة المؤسِّسة للمعنى القديم الكامن في ضمير الإنسانية، التي لا تنفك تردده، وتعيد قوله "على ((يد))اللوغوس ومن خلاله"[29]. وعلى هذا الأساس، فكل عمل أدبي لا يعدو أن يكون ضربا من الاختراق لعالم بعيد ينطوي على مسببات المتعة والالتذاذ، هو "عالم النسيان، إذ عبر الآثار تخلق متعة النص وذلك باستحضار المنسي المبعد أو المستبعد، إذ يكون مكان المتعة هو اللحظة أو لحظة الوقوف على الآثار بين الذاكرة والنسيان"[30]، حيث تقف طفولة الإنسانية، في كلام بداياتها، وكهولتها متمثلة في المتن الماثل بين يدي المتلقي وجها لوجه.

كما أن هذا الوضع المتأزّم يدفعنا إلى البحث في الأدب بوصفه ممارسة ثقافية تعيد إنتاج الرموز والأساطير التي شكلت ذهنية الجماعة، وأثرت في تصوراتها، بل وجعلتها ما هي عليه. في هذا السياق، يظهر أن الأبنية الأدبية، وما يتعلق بـ"التجانسات الصوتية بين الكلمات ذات الدلالة المتشابهة (مثل God وgood في الأنجليزية)، والقوافي المعيارية، والكلمات ذات المعاني المتعددة التي تسمح بالتوريات، هي جميعها مصادفات، أو كما يحلو للفلولوجيين أن يقولوا، اتفاقات ((خالصة))، لكنها تشكل النسيج الذي يدخل في العمليات الذهنية لجميع الناطقين الأصلاء باللغة"[31] التي يستعملها الأدب، ويتشكل بها المكون الأدبي الذي يعبر به الشاعر/ الكاتب، ويؤسس عليه حقيقته.

على هذا الأساس، فإن المعاني بالفعل مطروحة في طريق الشاعر/الكاتب، وعند استعمال الكلمات، فإنّ "الاستعارة وحدها تستطيع أن تعبر في اللغة عن معنى طاقة

28. جاك دريدا، **الكتابة والاختلاف**، ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سيناصر، دار توبقال للنشر، ط1، 1988، ص 115.
29. المرجع نفسه، ص 115.
30. فتيحة عابد، **رولان بارت: الكتابة والأثر، ضمن أهواء بارت ومغامرات البارتية**، إشراف وتحرير محمد بكاي، منشورات الاختلاف، ودار الأمان الرباط، وكلمة، ومنشورات ضفاف، ط1، 2017، ص 131.
31. نورثروب فراي، **المدونة الكبرى الكتاب المقدس والأدب**، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الجمل، وكلمة، ط1، 2009، ص 41.

تشترك بها الذات والموضوع. ويكمن مركز تعبير الاستعارة.[...] بين شكل من أشكال الشخصية ومظهر من مظاهر الطبيعة"[32] التي ينتمي إليها منتج الأدب. غير أن تساؤلا يفرض نفسه هنا، ويتعلق بعلاقة الاستعارة بحقيقة الأدب، وما إذا كانت هي حقيقته؟ دون أن نغفل أن الكلمات، وإن كانت تدل على الأفكار، فإنها في واقع الأمر تعبر عن العالم الخارجي، وتقدم صورة للمرجع، يمكن أن تتطابق معه، في عين الناظر، كما يرى هو ذاته مرجعا ، كما يمكن أن تخالفه لسبب من أسباب الكتابة، والعرض الأدبي.

وإذا كان الأمر على هذا المنوال؛ فإنّ أهم ما يلزمُ تحديده هو التطابق بين الأدب، بوصفه تعبيرا يروم الفن، ويطرق أودية الجمال، وبين الفكر، بوصفه الوعاء الذي ينظم أساليب عمل الجماعة، ويرتب فهمها، وضروب تصورها للذات والآخر والعالم. ولا شكّ أنّ مثل هذا البحث يقتضي، بالضرورة، الانطلاق من أنّ الأدب يتضمن معطيات ومحمولات ترتبط بتاريخه، وسياقه الثقافي، وما يهيمن عليهما من ذهنيات في زمن التأليف. وعلى هذا الأساس، يعدّ الأدب خطابا ينطوي على مسلمات، وعلى أفكار ومشترك عام، يحتجب وراء الأبعاد الفنية والجمالية الظاهرة على سطحه. وهكذا، فإن للأدب إذا، مجموعة من المستقِرات الدلالية التي يعيد إنتاجها خدمة للشرط السياقي الذي أنتج في ظله.

هنا، تزداد أهمية البحث عن منهج جامع يراعي كل ما تمت الإشارة إليه في دراسة الأدب، بوصفه ظاهرة لغوية، وبناء فنيا، وقولا عاطفيا، وتعبيرا ثقافيا، ينطوي على جملة من البنيات والأنساق والرموز التي تشكل أجزاءه، وتبني كيانه، دون انحسار في المعايير والمعالم البلاغية والنقدية التي ظلت مشدودة إلى النقل أو الترجمة، وأهملت روح الأدب، بوفائها لروح النظرية. على دراسة الأدب، فيما نرى، أن تكون مشدودة إلى لغته، وسياسته البلاغية، كما أن من واجبها أن تتغلغل في ثنايا النصوص، وتستنطق المضمرات القابعة (من) وراء الكلمات. إن المطلوب في مقاربة الأدب، كما نفهم، هو العناية بالعناصر الجمالية التي تفيدنا في التوصل إلى قدرة المنتج على تأليف الكلام وصوغه بما يعبر عن روح عصره.

على أن الاهتمام يجب دائما أن ينصبّ على المتن نفسه أولا وقبل كل شيء، لا على ما هو خارجه، سواء من حيث الأفكار المسبقة التي يمكن مصادفتها قبل الدراسة، أو في خضمّ تحديد سياق إنتاجه. إن أهم ما يلزم دارس الأدب، هو أن يبني فكرا أدبيا ونقديا يسعفه في معرفة النصوص الأدبية، وتحقيق التراكم المعرفي حولها، ومن تم "إقامة الصلة بين النص والمتلقي، ناهيك عن القدرة على توجيه الحركة الأدبية نحو الطريق الأفضل

32. المرجع نفسه، ص 45.

لتحقيق الاحتياجات الجمالية الفعلية للمجتمع"[33]، وللفرد على حد سواء، وتقديم تراكم فكري واضح المعالم حول الظاهرة الأدبية، ومقتضياتها؛ ليصير، بهذا، من اليسير تجاوز أزمة المنهج في قراءة الأدب، وتفسيره.

خـــاتمـــــــــة

ليس الأدب ظاهرة ثابتة، ولا كيانا جامدا يمكن إخضاعه للمعايير النقدية، والإمساك بخصائصه البنائية، المعلنة والمضمرة، اعتمادا على معطيات العلوم الإنسانية. إنه ممارسة نسقية تعيش على التحول، والمغايرة المستمرين، بمعنى أنه لا وجود لمركز أو نواة يمكن بلوغها لإدراك ماهيته، وبالتالي معرفة حقيقته. إن طبيعة الأدب، بما هو أدب، تفرض عليه التعددية، والانفتاح التأويلي، وإلا تحول إلى صخرة صمّاء، وأرض موات، لا يصلح لتحمّل المهمة التعبيرية المنوطة به. على هذا الأساس، فإنّ الأدب يعرف تشظيا دلاليا، وتوليدا مستمرا للمعنى، سواء مما هو كامن في النص من جهة مكوناته البنائية، أو فيما هو خارجه، ويتعلق بسياق إنتاجه، وظروف تلقيه.

على أن مقاربة الأدب يلزمها التقيد ببنيته الثقافية، ومرجعيته التكوينية التي أسهمت في إنتاجه، بضروبها كلّها، السياسية والاجتماعية والمعرفية؛ فما تفيد به هذه المقاربة، هو أنها تجعل المتلقي مدركا، في صميم تحليلاته، لمكونات السلطة في الأدب، الظاهرة منها، والخفية، وما تلعبه من أدوار في سبيل الحفاظ على وجودها، وضمان استمرارها عبر التقيد بإعادة إنتاج التمثلات، والمشترك العام والخاص بين أفراد العشيرة اللغوية؛ فالأدب، مهما أظهر من صور البحث عن الجمال، وصنوف الطّمع في إدراكه، فإن منتجه لا يخلو، ذهنيا وثقافيا، من منازع أسطورية تشكله، وتبني هويته، ومن تم تتسرب إلى إنتاجه الأدبي.

بناء على هذا الأساس، لا يكاد الأدب يخلو من صراعات رمزية بين الأطراف الاجتماعية، بل وما تعبر عنه كل جماعة، من رموز تتصل بما هو أسطوري، أو بما هو عقدي، أو غيره من البنيات الذهنية المتجذرة في العقل الاجتماعي، و التي تضرب بجذورها في القدم. مما يجعل من الأدب ساحة للقاء الطبيعة والثقافة، والوعي واللاوعي، انطلاقا من تكرار السالف، والقديم، والانفصال الذاتي عنه تاريخيا، ومعرفيا. من هنا، يصير من اللازم مراعاة سياقات التأليف الأدبي، وظروف الشاعر/الكاتب، في سبيل الوصول إلى طرفي المعادلة الأدبية، ونقصد بهما، الفني الجمالي، والثقافي الذهني. وهي جميعا منضوية تحت لواء الذاكرة والنسيان.

33. سيد البحراوي، **البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث**، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ط1، 1993، ص ص 113 – 114.

ومما سبق، يمكن الاطمئنان إلى أن المقاربة الأدبية القابلة لمراعاة كل ذلك، بكامل النسبية، هي الدمج بين الأبعاد اللغوية للأدب، بناء على ما تتضمنه من علامات سيميائية، ثم الشروح في تفكيك عناصرها تفكيكا يراعي الجنس الذي تنضوي تحته، وتعبر من خلال الالتزام بمقتضياته البنائية، شكلا ومضمونا. مع تحديد السياقات الأدبية والفنية التي تنتمي إليها، وما تنطوي عليه من مرجعيات فكرية، وأبعاد أيديولوجية تتحكم في المتلقي، وفي فاهمته، بوصف العمل المدروس يعمد إلى إنتاج معنى عبر التوسّل بمجموعة من الأطر الفكرية، والأنساق المعرفية التي تبث الروح في العمل.

بيبلوغرافيا

إبراهيم سلامة، **بلاغة أرسطو بين العرب واليونان**، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1950.

تزفيطان طودوروف، **الأدب في خطر**، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، ط1، 2007.

جاك دريدا، **الكتابة والاختلاف**، ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سيناصر، دار توبقال للنشر، ط1، 1988.

جيرار جنيت، **مدخل لجامع النص**، ترجمة عبد الرحمان أيوب، دار توبقال للنشر، ط1، 1985.

جيرال دو لودال، **السيميائية أو نظرية العلامات**، ترجمة عبد الرحمن أبو علي، دار الحوار، اللاذقية، 2004.

حسين الواد، **في مناهج الدراسات الأدبية**، منشورات الجامعة، السلسلة الأدبية – 2، ط 1984.

خديجة الزتيلي، **أفلاطون السياسة، المعرفة، المرأة**، منشورات الاختلاف، ودار الأمان الرباط، ط1، 2011.

رولان بارت، **النقد والحقيقة**، ترجمة إبراهيم الخطيب، مراجعة محمد برادة، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط1، 1985.

رينيه ويليك وأوستن راين، **نظرية الأدب**، ترجمة محيي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1987.

سيد البحراوي، **البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث**، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ط1، 1993.

الطاهر وعزيز، **تقديم المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية**، دار توبقال للنشر، ط3، 2001.

عبد السلام بنعبد العالي، **نحو سياسة للمعرفة**، ضمن كتاب، **إشكاليات المنهاج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية**، دار توبقال للنشر، ط2، 2001.

عبد الفتاح كيليطو، **مسألة القراءة، ضمن المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية**، دار توبقال للنشر، ط3، 2001.

عبد القادر الفاسي الفهري، **عن أساسيات الخطاب العلمي والخطاب اللساني، ضمن المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية**، دار توبقال للنشر، ط3، 2001.

عبد الله العروي، **المنهجية بين الإبداع والاتباع، ضمن المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية**، دار توبقال للنشر، ط3، 2001.

عبد المنعم تليمة، **مداخل إلى علم الجمال الأدبي**، منشورات عيون المقالات، ط2، 1987.

فتيحة عابد، **رولان بارت: الكتابة والأثر، ضمن أهواء بارت ومغامرات البارتية**، إشراف وتحرير محمد بكاي، منشورات الاختلاف، ودار الأمان الرباط، وكلمة، ومنشورات ضفاف، ط1، 2017.

ميخائيل باختين، **الماركسية وفلسفة اللغة**، ترجمة محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال للنشر، ط1، 1986.

نورثروب فراي، **المدونة الكبرى الكتاب المقدس والأدب**، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الجمل، وكلمة، ط1، 2009.

الدوريات:

رولان بارث، **من أين نبدأ؟**، ترجمة محمد البكري، مجلة عيون المقالات، ع12، 1989.